عبد الرحمن بن خلدون

١٣٣٢ — ١٤٠٦

بحث نقدي في حياته واسلوبه وآرائه

تمهيد : — كثيراً ما عالج الكتاب هذا الموضوع من احدى نواحيه المتعددة غير اننا لم نعثر في مطالعاتنا على كتاب واحد بل على رسالة او مقال خصص لهذا البحث فوفاه حقه من جميع وجوهه . ولقد تجرّد لهُ المستشرقون فكتب الاستاذ بور الهولاندي (Boer) عن الفلسفة الخلدونية [1] واهتم فلنت الاسكتلندي (Flint) بآرائه التاريخية فوزنها ونوّه بقيمتها [2] . واراد مكدونلد الاميركي (Macdonald) ان يتتبع سير التربية في الاسلام ، فوجد ان ابن خلدون كان اول من طرق هذا الموضوع في ابحاثه ، من مؤلفي المسلمين [3] وانبرى كلوزيو الايطالي (Clausio) لدرس المقدمة فبهرتهُ نظرياتها الاقتصادية [4] . كذلك ترى ان كثيرين من الاختصاصيين غير هؤلاء التفتوا مظاهر اخرى من حياة هذا المفكر الخالدة ، قاعدة لبحثهم فكتبوا فيها فصولاً عديدة

ومن اجلّ ما يذكر من الجهود في هذا السبيل واقربها الى الاتمام بحذافير الموضوع كتاب الدكتور طه حسين في اراء ابن خلدون الاجتماعية الذي عرضهُ على السربون فنال بهِ اجازة الدكتوراه [5] . بيد انهُ لم تخرج هذه الكتابات عن كونها مباحث متفرقة ، تنوّعت طبقاً لاختلاف وجهة كتابها في النظر الى هذا الموضوع الشاسع . ولا نعرف كما اسلفنا مؤلفاً واحداً غربياً او شرقياً افرد لهذا البحث كتاباً خاصاً تحيل القارئ عليهِ يتناول ابن خلدون شخصية كاملة لم تشلّ اعضاءها اقلام الكتاب

كل ذلك ولابن خلدون ما لهُ من المكانة العالية في تاريخ الفكر العربي ، اذ لهُ يرجع الفضل في ان اللغة العربية تستطيع ان تفخر اليوم بكونها اول لغة ازدانت اديباتها

---

(١) اطلب كتابه The History of Philosophy in Islam طبعة لندن سنة ١٩٠٣ ص ٢٠٠ (٢) راجع مؤلفه History of the Philosophy of History طبعة ادنبره سنة ١٨٩٢ ص ١٥٧ (٣) راجع كتاب Aspects of Islam طبعة لندن ص ٣٠٩ (٤) اطلب ترجمة مقاله العربية في كتاب اراء غربية في مسائل شرقية طبعة دمشق ص ٣ (٥) وقد ترجمه عن الافرنسية محمد افندي عنان بعنوان فلسفة ابن خلدون الاجتماعية طبعة القاهرة سنة ١٩٢٥ .

بطلائع الابحاث الاجتماعية الحديثة ، وامتازت باحتوائها على اول كتاب في النقد التاريخي . ولا نجهل ما يحول دون هذا الدرس على تمامه من الصعوبات الجمة ، وقد يكفينا القول بان ذلك يستلزم حياة عالم كاملة ، يقفها على درس هذا الفيلسوف فيفوز بثمرة لابحاثه ينتظرها الادب العربي و يتلقاها الباحثون بالشوق العظيم . ولئن تفاخر الغربيون باقذاذ مبتكريهم وملأوا المكاتب بنتائج شتى الابحاث في حياتهم ، وعظموهم بتلقيبهم ، ايا لهذا العلم او ذاك Father of فقد حق للشرقي العربي ان يجل ابن خلدون وان يتفاخر به وهو بالحقيقة « اب » لكل ما يتصف بالبحث في الادبيات العربية اليوم

ومع كل ما قدمنا ، فنحن نحاول ان نضع في ابن خلدون مقالاً مجملاً نعرف القارئ بواسطته على شخصية كاملة ، تأثرت واثرت في زمنها ومحيطها بما ميولها ونقائصها الطبيعية . وقد رأينا ان في المراجع المذكورة في خاتمة هذا المقال مادة كافية في مختلف ابوابها اعتنينا بجمعها واحكام روابطها لتمثل لك كلاً لا يتجزأ ، ولم نحجم في كثير من المواقف عن تمحيص المصادر ونقدها نقداً علمياً ، مدلين بما بدا لنا في شأنها من الآراء الخاصة . ولكي نبلغ الغاية التي جعلناها نصب اعيننا وجب علينا النظر في العصر الذي نشأ فيه ابن خلدون ليطلع القارئ على العوامل المختلفة التي ولدت هذه العقلية المدهشة ، وليتصور لنفسه الميدان الذي جرت فيه هذه الشخصية الكبيرة شوطها الخطير

﴿ العصر الذي نشأ فيه ابن خلدون ﴾ يمثل القرن الرابع عشر في التاريخ الاسلامي ، دور احتضار المدنية العباسية الفرسية ، وانتقال السيادة الزمنية من ايدي الاعاجم الغرباء الى ايدي الاتراك الدخلاء . وقد دهمت العالم الاسلامي آنئذٍ جيوش المغول والتتار فعاثت في ارجائه فساداً . فلا غرابة اذن ان رأينا العصر عصر نزاع ونضال ، خر فيه شيخ السلطة العباسية الفضم فريسةً لاطماع الافراد الطامحة والفئات الثائرة كل ينتهش منها جزءاً ليقيم على اساسه مملكة او امارة مستقلة

فكان الحكم في الاندلس يقتسمه عدة امراء ، دعوا بامراء الطوائف ، استبد كل واحد منهم بقاطعة صغيرة ، وهم لا ينفكون عن الاغارة بعضهم على بعض قصد التوسع والاحتلال . والمشرق لم يكد يخرج من الحملات الصليبية نحيلاً متضعضعاً حتى كرّت عليه جيوش التتر تذيقهُ من الوان النتح في تلك الايام مالم يذقهُ من ذي قبل . واما شمالي افريقيا فكانت تقسم الى ثلاثة اقسام رئيسية

١ — افريقيا او ما تدعوهُ اليوم تونس وعاصمتها بهذا الاسم ، يحكمها بنو حفص

من سلالة الموحدين . ٢ — المغرب الاوسط او الجزائر ، وقد قام بامرها حين ذاك بنو عبد الواد ، في عاصمتهم تلمسان . ٣ — المغرب الاقصى او مراكش ، وكانت بسوسة بنو مرين وعاصمتهم في فاس

وفي الجنوب غير هذه السلطات ، قبائل من البربر متعددة ، تغزو المدن فتمكر عليها ما تركهُ لها الامراء الطامعون من الصفاء المضطرب . وهذه الدويلات نفسها منقسمة الى امارات عديدة يحكمها امراء غلبت عليهم الاثرة واستولى عليهم الجشع والطموح . فلا نبالغ اذا وصفنا الحال السياسية اجمالاً بالفوضى التي لا قرار لها

بيد انهُ لم تكن هذه حالة الثقافة والعلم في ذلك العصر المضطرب ، كما يغلب على ظن القارئ لوصفنا . فالابحاث الحديثة في تاريخ البلاد الاسلامية ، قد برهنت لنا اليوم على ان مستوى البلاد العقلي لم يمش دائماً مع الاحوال الاجتماعية والسياسية . وهذا الرأي اصدق ما يكون على المحيط الذي نشأ فيهِ ابن خلدون ، اذ بينما كانت الاحوال السياسية في المغرب على ما بيّنا ، كانت العلوم فيهِ قد بلغت الاوج من تطورها ، وكثرت المجاميع والمؤلفات ايما كثرة . في هذا الميدان ظهر عبد الرحمن بن خلدون ، فبنى نظامهُ الفلسفي واراءهُ الاجتماعية على ما طالع من علوم القدماء ، معتمداً في فحصها وتمحيصها والتعليق عليها ، على خبرتهِ وما كان يشاهدهُ بأم العين

﴿ حياتهُ ﴾ في تلك الآونة التي أخذ يحلّ فيها جسم الاسلام الهائل الى عناصره المختلفة ، وفي زمن امتاز بالقلاقل والنزاع والانقلابات السريعة ، ولد في تونس مؤرخ كبير هو احد تلك العقول المبتدعة في تاريخ الفكر عند العرب . فكانت حياتهُ اشبه شيء برفرفة شعلة النور قبل انطفائهِ . وابن خلدون ينتسب الى اسرة حضرمية عريقة في النسب ، فقد قدم جدّهُ خلدون الى الاندلس ايام الفتح ولبثت العائلة في اشبيلية يتسنم افرادها أعلى المناصب السياسية حتى كان القرن الثالث عشر ، وتقدم الاسبانيون لاسترجاع ممتلكاتهم من أيدي الغاصبين ، فرحلت حين ذاك اسرة خلدون الى شمالي افريقيا حفظاً لنفوذها ، واستقرت في تونس حيث اكتحلت عينا المترجَم بالنور في اول رمضان عام ٧٣٢ هـ (١٣٣٢ م)[1]

وقد قضى ابن خلدون ايام صباهُ بين ايدي والدهِ الذي كان قد اعتزل السياسة وتفرّغ للعلم ، فتعهد ولدهُ على عادتهم في تلك الايام كمهذّبٍ ومعلمٍ في آن واحد ، فدرس

(١) راجع مؤلف هيوار الافرنسي Litherature Arabe طبعة باريس سنة ٩٢٣ ص ٣٤٥

عليهِ القرآن واللغة والحديث واتقنها وهو لا يزال في سن يصعب على غيرهِ اكالها فيهِ. وحين استولى السلطان ابو الحسن المريني على تونس سنة ١٣٤٧ ، حظي ابن خلدون بالدرس على العلماء المغاربة الذين كان يستصحبهم السلطان للفاخرة والتبرك ، فاتم على يدهم العلوم الشرعية والكلامية المعروفة لذلك الحين . وكان بعدهُ شاباً لم يطرّ شاربهُ حين اغتنم الفرصة لعقد روابط عملية مع هؤلاء الاساتذة ، كانت فيما بعد الخطوة الاولى في سبيل الخطوة السياسية التي سنرى ابن خلدون يستهلك من اجلها و يسعى اليها جهدهُ

ومن سنّ العشرين فصاعداً تصبح سيرة ابن خلدون مبهمة متعقدة ، مع وجود تاريخ لحياتهِ كتبهُ هو بيدهِ ، وسبب هذا الابهام والتعقيد تدخلهُ بسياسيات تلك الايام المضطربة ، وتنقلهُ من خدمة مليك الى آخر حسبما يملي عليهِ طموحهُ . فانك تراهُ بادئ الامر في بلاط بني حفص كاتباً لعلامة السلطان عزيزاً مكرماً . ثم ينتقل الى خدمة ابي حمو من بني عبد الواد راجياً ان يلقى هنالك نفوذاً اوسع . فاذا ما غلب هذا المليك على امرهِ تركهُ في اضيق الاوقات فاراً الى صدور عبد العزيز المريني ، فيفوز لديهِ فيأخذ المناصب ، ولكنهُ لا يلبث ان يكون ذا شأن كبير في دسائس البلاط يقضي على اثرها مدةً في السجن ، ثم يرضى عنهُ السلطان ثانية فيخرج و يستأذن بالسفر الى الاندلس طمعاً بالمراكز العالية ، فيحظى هنالك بعطف بني الاحمر و يتعرف على لسان الدين بن الخطيب صاحب كتاب (الاحاطة باخبار غرناطة) فيصادقهُ زمناً ، بيد انهُ لا يكتفي بما نالهُ من المكانة بل تطمح نفسهُ الى اعلى من ذلك ، فيغطن محمد الخامس الى ذلك واذ كان وزيرهُ ابن الخطيب قد خوّفهُ منهُ قبلاً ، امر بتسفيرهِ الى الشطوط الافريقية ، وهنالك يدسّ ابن خلدون دسائسهُ مرة ثانية متنقلاً من بلاط الى آخر . واستمر بهِ الحال كذلك مدة حتى سئم السياسة ومفاجئاتها ، وكان قد بلغ الاربعين او يزيد فاعتزل مع عائلتهِ الى احياء العرب حيث نزل بيناء يقال لهُ قلعة سلامة ، عاش فيها اربع سنوات في احضان السكينة المقدسة ، اثمرت فريحتهُ في خلالها مقدمتهُ الرائعة الشهرة وقسماً من التاريخ الكبير [1]

وكأني بالعلم قد استبدَّ بهِ في هذه الاونة فعزم على الرحيل الى تونس لمراجعة بعض الاصول لتكملة تاريخهِ ، ولكن طلب الشهرة يستغويهِ هنالك ثانية وما ان يحقق سعيهُ حتى يقرر السفر الى مصر معتذراً بالحج . فركب البحر الى الاسكندرية في سنة ٧٨٤ هـ وبلغها بعد اربعين يوماً . غير انهُ قد خاب هناك املهُ لان الاحوال الاجتماعية

(١) اطلب ملخصاً لسيرته في دائرة المعارف الاسلامية

في القاهرة لم تساعده لان يلعب تلك الادوار السياسية التي اعتادها في دويلات البربر غير ان شهرته كاديب عالم كانت قد سبقته الى مصر فانتدبه السلطان برقوق للتدريس بالازهر ، ثم اصبح استاذاً للفقه المالكي في الكلية القمحية التي اسسها صلاح الدين ، واخيراً عين قاضي قضاة للمذهب المالكي ولكن نطرفه وتشدده جلبا عليه سخط المحافظين حتى عزل من منصبه وعين له اكثر من خمس مرات متوالية في العام الواحد . ولما يئس من بلوغ غايته كما حدث له في المغرب اعتزل السياسة واهلها وقضى بقية ايامه في قرية من اعمال الفيوم في هدوء لم تشوشه عليه الا رحلته الى الحج سنة ٧٨٩ وقد ذكره بها ، مصيبته بغرق عائلته في عبورها البحر قادمة اليه من مراكش

ويؤيد ميل ابن خلدون الشديد الى الدهاء والسياسة ، حادثة اخرى في الاخيرة في سلسلة حياته ، فان الملك الناصر كان قد استصحبه مع عدة قضاة اخر ، في حملته الى سوريا لرد هجمات التتار عن دمشق . ولما رجع السلطان وتقهقر الجند الى مصر ، واما ابن خلدون الذي كان في داخل المدينة فقد خرج منها يفاوض تيمور بالصلح ويتزلف اليه على عادته مع كبار الزعماء ، وله معه محادثات طويلة تنم كلها على قوة لسانه وقدرته السياسية وتلاعبه ومداهنته وتراجع تفاصيلها في كتب التاريخ العربية كالشهرستاني وغيره . وقد فشل في خداع ذلك التتري المتمدن فرجع الى مصر حيث توفاه الله في ٢٥ رمضان سنة ٨٠٨

﴿ خلقه ﴾ رأينا ما يشوب حياة ابن خلدون من التعقيد وان سيرته ليست في الحقيقة سوى تاريخ مصغر لامراء بلاده ، ودبلوماسية تلك الايام . فالمجتهد في استخلاص بعض الحقائق عن نفسية المؤلف وحقيقة اميالهِ . لا يتردد من يقرأ سيرة مؤلفنا في الحكم بان شخصيته كانت تتأثر بعاملين شقا حياته الى شطرين : الاول طموحه الى الشهرة واستهلاكه في سبيل الرفعة السياسية . واما Wesendouk الالماني فيحاول القول بان ابن خلدون لم يعان تقلبات البلاط ومفاجئات السياسة الا مضطرا ، وذلك حرصاً على الروابط العلمية التي كان يخشى على فقدانها في ذلك العصر المضطرب . بل هو يتطرف برأيه اكثر من ذلك حتى يقول « ولم تدفع المؤرخ الى تقلد المناصب والسلطة والجاه عوامل مادية ، بل كان الدافع شغفه بتحقيق المعارف النظرية في عالم الحقائق الوحشية واثباتها بالتجارب الحسية »[1] اما نحن فنرى في هذا التحليل ، ميلاً حديثاً يمد احتمال وقوعه في بيئة غلبت

(١) راجع تمريباً لتلك ملحقا بكتاب الدكتور طه حسين المشار اليه آنفا ص ٧٦

عليها صبغة القرون الوسطى . ولا نفسر هذا التناقض الظاهر في ميول ابن خلدون العلمية السياسية الا بردها كلها الى روح تشربت بروح المخاطرة على جميع وجوهها ، سواء في السياسة ام العلم ام الحياة ، ولعمري فان هذا الميل واضح في كتاباته المبتكرة كما انه ظاهر في حياته العاصفة ، بل هو في نظرنا المفتاح الوحيد لفهم شخصية هذا المفكر الفاضلة

وللمؤرخ معائب في خلقه لا تفوت من تعمق في درس حياته ولو بعض التعمق . منها تقلبه واتصافه بالاثرة الشخصية فهو لم يعرف له في حياته وطناً بل كان يتنقل هنا وهناك وراء مصالحه الفردية غير مكترث لمصلحة بلاده ولا لمنفعة الجمهور . وامر من ذلك انه لم يتخذ له مبدأ ثابتاً في اعماله ، بل انه لم يخلص في حياته ولو لشخص واحد . فقد كان يخون احد السلاطين ثم يشيع له مراراً عديدة في العام الواحد . وان في صداقته لابن الخطيب الغرناطي بادئ الامر ، ثم انقلابه عليه ومنافسته له في وزارته في بلاط بني الاحمر لدليلاً صريحاً على انانيته وعدم اخلاصه . وقد كان يميل الى الزهو بنفسه والتحدث بفضائله . فهو اول كاتب عربي وقف حياته كتاباً كاملاً لم يقتصر فيه على ذكر اساتذته بل قدم لنا لمحة عامة عن حياتهم واعمالهم وبلغ تبحرهم في العلوم التي درسوها . وليس ذلك الا ليطلعك على عظمة الذين تخرج على ايديهم وانك لذلك تستطيع ان تثق بكفايته . ولكي تزيد القارئ ايضاحاً نأتي بجملة واحدة وردت في سيرته . وهو يتحدث عن نزوله بغرناطة في الاندلس تستطيع ان تأخذها مثالاً لزهوه وتباهيه اذ يقول «وتهافت العلماء واهل البلد علي من كل صوب يسحون اعطافي و يتبرعون بدي وكان يوماً مشهوداً» (١) والقارئ لتارة يحس بشعور بهذه الروح بين تضاعيف سطوره

﴿ عقليته ﴾ رأيت ما لابن خلدون من السقطات الخلقية غير ان له من عقليته ومميزاتها ما يشفع بعظمته بعض الشيء فقد تغتفر له زهوه وتتغاضى عن اثرته حين تذكر انه الرجل الوحيد في عصره الذي وقف حياته لخدمة العلم والفلسفة . وقد امتاز هذا المؤرخ الكبير بعقلية عملية لا نبالغ ان قلنا انها كادت تكون حديثة في طرق تفكيرها . فان اطرح جانباً كل ما عرف في ايامه من النظريات الفلسفية . والقواعد التجريدية . والاوضاع المنطقية . واتخذ له بدلاً سبل التفكير الشخصي المبني على الاختبار والنظر . والوسط الذي نشأ فيه مؤلفنا اثر كبير في تكوين عقليته المدهشة . فقد وجد في زمن ساد فيه الصراع والاضطراب كما رأينا . فلا غرو اذا وجدناه كثير الحذر جم المخاوف

(١) اطلب تاريخه الكبير طبعة مصر سنة ١٨٦٧ ج ٧ ص ٤١١

يميل الى الرزانة في تفكيره كيما يتخلص من تلك العوامل المتقلبة والاحوال المشوشة ، نظاماً ثابتاً وعاملاً مستمرًّا يتكل عليه في تفكيره . ولذلك نقد امتاز ابن خلدون سواء في رحلاته او خدماته لمختلف الامراء ، بقوة الملاحظة ، والتبصر في اعماق الامور . وسنرى ذلك بيناً في درس مؤلفاته . اذ اتخذ لهُ من دويلات البربر مختبراً ومن تجاربه قاعدة ، شاد عليها كل ما عرف من الابتكار والابتداع في فلسفته

ويقابل Ferrero الايطالي مترجمنا بكيا فللي الفلورنسي صاحب كتاب الامير . فيقول انهُ كان نظيرهُ مشابهاً كثير الشكوك . ولكننا مما نرى من الصدق في هذه المشابهة بين الرجلين في بعض الامور ، كاتكال كلٍّ منهما على الاحوال السائدة في زمنه لاستخلاص فلسفته . وتفانيهما من اجل الشهرة والمكانة العالية . وتفردهما بالابتكار في عصر عمَّ فيه الخمول — نقول مع كل ذلك اننا نميل الى نفي التشاؤم عن طبيعة ابن خلدون ونتفق مع الدكتور طه حسين حيث يقول فيه « انهُ كان اقرب الى الابتهاج والثقة بنفسه وكان دائماً يؤمل ان تكلل جهوده بالظفر رغم خيباته » . ونحن نرى فوق ذلك فرقاً عظيماً بين الرجلين فيما يحاولون تعميمهُ من الآداب السياسية اذ يقول مؤلف «الامير» في كتابه الذي ترجمهُ المحامي محمد لطفي جمعه « ويجب على الامير ان لا يخشى عار المعايب التي يصعب عليه بدونها الاحتفاظ بالملك لان الانسان اذا امعن النظر رأى ان كثيراً من الامور التي تظهر لهُ انها فضائل قد تؤدي بهِ الى الخراب اذا اتبعها . وكثيراً مما يبدو كأنهُ من الرذائل قد يؤدي الى الخير والسلامة » . اما ابن خلدون فيخالفهُ او هو يناقضهُ في اكثر الاراء فيقول (ان خلال الخير هي التي تناسب السياسة والملك لان المجد لهُ اصل يبنى عليه وهو العصبية . ولمرع يتم بهِ وجودهُ وهو الخلال » . وهناك مقابلات اخرى عثرنا عليها لا نستطيع البت فيها الآن لعدم الاطلاع الكافي فيشبهُ المستشرق الالماني Kramer بابي العلاء ويقول ان الاضطراب العام الذي وجدا فيه قد اثر في ميولهما كثيراً . وفي مجلة المقتطف لسنة ١٨٨٦ مقال قابل فيه الكاتب بين آراء ابن خلدون في المجتمع وما يشابهها في كتابات سبنسر الفيلسوف الانكليزي الشهير . ولا افضل من ان نختم هذا الفصل من حياة ابن خلدون بما قالهُ فيه صديقهُ ابن الخطيب الذي عرفهُ وعاشرهُ مدة طويلة اذ قال « هو رجل فاضل حسن الخلق . . . . . طامح لفنن الرئاسة خاطب للحظ . متقدم في فنون عقلية ونقلية . متعدد المزايا سديد البحث » ونحن نترك للقارئ الخيار في تقرير ما يعلقهُ على هذه الكلمات من الشأن

شكري محمد